

كم من الفرص الثمينة تضيع على الإنسان نتيجة عدم إتقانه فنون الاتصال بالآخرين أو بسبب سوء تعامله معهم، وإليك هذه القصة التي توضح المعنى الذي نريد. سيدة كانت تعيش في أرقى أحياء نيويورك، وكان لديها كل ما يتمناه الفؤاد، ولكن طفلتها التي كانت تبلغ من العمر خمس سنوات هاجمها مرض خطير، ولم يكن هناك من يعرف له حلاً.

وكان أفضل أطباء نيويورك وأبرعهم في موقف حرج، فقد كانوا عاجزين عن المساعدة أو التصرف في هذا الأمر، مع أن الأم لم تدخر سنتاً واحداً لتنقذ طفلتها. ولكن عندما بدا أنه ليس هناك أمل قرأت الأم في جريدة (New York Times) عن طبيب سويسري بارز كان على وشك زيارة نيويورك ليلقي بعض المحاضرات في كلية الطب بجامعة نيويورك.

أحسّت الأم بغريزتها أن هذا الطبيب هو الوحيد الذي يمكنه أن ينقذ طفلتها، ولهذا أخذت تسعى وراءه بشكل حثيث، فداومت على الاتصال به، وعلى الكتابة له راجية منه أن يساعدها، ولكن لم يصلها أي رد.

وبعد ذلك، وفي ظهر يوم مطير، وبينما كانت هذه السيدة منغمسة في البؤس والشقاء إذا برجل، ملتح، قصير القامة، مهيب الهيئة، يدق بابها وقد ابتليت جميع ملابسه من فعل المطر. ماذا تريد؟ سألت السيدة هذا الرجل. " معذرة يا سيدي " بدأ الرجل في الحديث: " ولكنني ضللت الطريق على ما يبدو، واستأذنتك في استخدام هاتفك كي اتصل بالسائق، فهل تأذنين لي؟

" حسناً، إني آسفة على ما حدث لك " أجابت المرأة بلهجة صارمة، " ولكن طفلي مريضة وأنت بالطبع لا ترضى أن تسبب لها أزعاجاً " ثم أغلقت الباب في وجه الرجل.



وفي صباح اليوم التالي، أخذت السيدة تفتش عن مقال آخر عن هذا الطبيب الذي كانت تسعى وراءه بكل لهفة ليساعد طفلتها، وكان في هذه المرة فقط أن اشتمل المقال على صورة للطبيب.

وبشكل لا يصدق عقل، كان هذا الطبيب هو الرجل الذي أغلقت بابها في وجهه بالأمس، يا له من فرق ذلك الذي كانت ستحدثه لو أنها استجابت له بشكل أكثر ودأً وقبلت أن تجري له المكالمة!

إن هذه القصة تتكرر في حياتنا آلاف المرات، في كل يوم حيث يغلق الناس أبوابهم في وجه الفرص التي تأتي إليهم.

إن العلاقات الشخصية لا يمكن أن تُبنى على أساس من الحدة والعنف وقلة الصبر، لذا كن ودوداً، ولا تتسرع في إصدار الأحكام، وافتح عقلك وقلبك على مصراعيهما، وعامل الناس بكياسة واحترام، فمن يدري ماذا يحدث غداً؟

ولكي يكون اتصالك بالآخرين مؤثراً لا بد أن تكون قدوة لهم، كما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم قدوة لأصحابه، وصدق الله إذ يقول: " لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيراً".

ويقول صلى الله عليه وسلم: "إنما أنا عبد، آكل كما يأكل العبد، وأجلس كما يجلس العبد". وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يركب الحمار، ويُردف خلفه، ويعود المساكين، ويجالس الفقراء، ويجلس بين أصحابه مختلطاً بهم، حيثما انتهى به المجلس جلس.

وحج رسول الله صلى الله عليه وسلم على رحلٍ رثَّ عليه قطيفة ما تساوي أربعة دراهم، فقال: اللهم حجة لا رياء فيها ولا سمعة. ولما فتحت عليه مكة ودخلها بجيوش المسلمين، طأطأ رأسه على راحلته حتى كان يمس قادمته، تواضعاً لله تعالى.

وكان كثير السكوت لا يتكلم في غير حاجة، ويعرض عن تكلم بغير جميل، وكان ضحكه تبسماً، وكلامه فصلاً، لا فضول فيه ولا تقصير، وكان ضحك أصحابه عنده التبسم، توقيراً له واقتداءً به، مجلسه مجلس حلم وخير وأمانة، لا تُرفع فيه الأصوات، ولا تخدش فيه الحرم، وإذا تكلم أطرق جلساؤه، كأنما على رؤوسهم الطير.

وإذا مشى مشى مجتمعاً، يعرف في مشيته أنه غير ضجر ولا كسلان. قال ابن أبي هالة: كان سكوته على أربع: على الحلم، والحذر، والتقدير، والتفكير. وقالت عائشة رضي الله عنها: كان يحدث حديثاً لو عدّه العادُّ أحصاه.

وهذه حكاية لطيفة ذكرها القصاص عن الاسكندر الأكبر، حيث أدّت المطاردة الطويلة والمؤلمة لدارا على يد الإسكندر الأكبر (إذ أنه قطع ٣٣٠٠ فرلنغ، أي أكثر من أربعمئة ميل) في أحد عشر يوماً إلى تضايق جنوده، إلى درجة أن معظمهم كان على استعداد للتخلي عن تلك المطاردة لسبب رئيس وهو نقص الماء.

وبينما كانوا في هذا الكرب، تصادف أن مرّ في المكان الذي كان فيه الإسكندر بعض المقدونيين الذين جاؤوا بالماء في قِربِ محملة على بغالهم من نهر قد عثروا عليه. وعندما رأى المقدونيين الإسكندر يكاد يخنق من العطش، ملأوا بالماء خوذةً وقدموها إليه، فأخذ الخوذة بيديه، ونظر فيما حوله، فرأى أن جميع القريبين منه قد تناولت أعناقهم وهم ينظرون إلى الماء على نحو جدّي، فأعاده مع الشكر، دون أن يتذوّق قطرة منه، قائلاً: " إنني لو شربت وحدي، لاهارت معنويات الآخرين ".

ولم يكد الجنود يلاحظون ضبطه لنفسه وشهامته في هذه المناسبة حتى هتفوا له جميعاً بصوت واحد أن يقودهم إلى الأمام بجرأة، وبدأوا يجلدون خيولهم، قائلين إنه ما دام لديهم ملك كهذا فإنهم يتحدّون التعب والظماً معاً.

د. علي الحمادي

رئيس مركز التفكير الإبداعي

ورئيس مركز الدقيقة الواحدة

والمشرف العام الموقع الإلكتروني إسلام تايم